العرب المسيحيون

ا.د. هاني عبيد

مقدمة

العرب المسيحيون هم جزء اساسي من المكون الديمغرافي لسكان بلاد الشام والعراق، وهم نتاج التاريخ والجغرافيا. تاريخياً هم أحفاد الساميين الذين هاجروا من الجزيرة العربية، وجغرافياً فقد استوطنوا منذ القدم هذه البلاد. فالعرب والأراميون والكنعانيون من أصل سامي واحد. أُطلق على سكان الجبال اسم الأراميين وعلى سكان المنخفضات اسم الكنعانيين وعلى سكان الصحراء اسم العرب. وفي هذا الصدد يجزم د. أدمون رباط أن الساميين جميعهم عرب.

كانت العلاقة بين العروبة والمسيحية تشكل مفهوماً ملتبساً على مر التاريخ وتتأثر هذه العلاقة بالظروف السياسية والمفاهيم الايدولوجية السائدة ويتم استخدامها لتحقيق مكاسب قد تكون سياسية أو إقتصادية، وفي أحيان كثيرة للتأثير على التوجهات الثقافية لسكان المنطقة العربية.

لقد فشلت على مر التاريخ المحاولات التي كانت تهدف إلى فصل العروبة عن المسيحية وكأن العلاقة بينهما كانت مؤقتة، أو أنها زمنياً ترتهن بالظروف السياسية السائدة. ويعود السبب في رأينا إلى سيادة مفاهيم دينية مستوردة من خارج الوسط العربي تحاول تأطير هذه العلاقة ضمن مفهوم الأقليات والتي عليها التعايش وفق ضوابط محددة سلفاً في الوسط الإسلامي. لقد تناسى هؤلاء الحقائق التاريخية التي تقول أن العرب المسيحيين كانوا الحاضنة التي استقبلت الفتوحات الإسلامية. فمثلاً، كانت تغلب قبيلة عربية مسيحية شاركت مشاركة قوية في الفتوحات الإسلامية، ولم تدفع الجزية بل دُفِعت عنها الصدقة كنوع من المعاملة الخاصة، حيث قال الخليفة عمر بن الخطاب أن العربي لا يدفع الجزية، فالعرب المسيحيين كان يُنظر إليهم على أنهم أقرب إلى المسلمين ثقافيًا ولغويًا، ولذلك عامَلهم عمر معاملة خاصة، وهذا أقوى ردٍ على التكفيريين الذين يطالبون المسيحيين بدفع الجزية.

إن وصف العرب المسيحيين كاقلية ينطوي على خطأ من ثلاث نواح على الأقل، كما ذكر الكاتب العراقي علي الصراف. اولاً: يتجاهل كونهم عرباً، والعرب أغلبية في أوطانهم، وثانياً: أنه يضعهم على هامش التاريخ في المنطقة، وهم الذين كانوا في قلب الأحداث ولعبوا دوراً حضارياً في مشروع النهضة، وأخيراً: أنه يعزلهم عن الدور السياسي الوطني الذي لعبوه في مشروع التحرر والاستقلال والوحدة. في كل مراحل التاريخ لم تغلب مسيحيتهم على عروبتهم، بل كانت عروبتهم هي عنوانهم الأوحد.

تكتسب دراسة العرب المسيحيين وتراثهم باللغة العربية أهمية متزايدة الآن في ظل تناقص أعداد العرب المسيحيين قي بلاد الشام والعراق، وخاصة تلك المجتمعات المسيحية التي يغلب على طقوسها وتراثها الطابع السرياني، حيث تواجه هذه المجتمعات خطر الاندثار بالرغم من مساهمة أسلافهم بالفكر والعلم حيث على أكتافهم قامت أكبر حركة ترجمة للتراث الإغريقي والروماني في التاريخ.

كانت هذه المنطقة تتميز دوماً بتنوع ثقافاتها ووحدة مكوناتها الأثنية والدينية حيث رفدت هذه المكونات تراثها التاريخي ولعبت العربية المسيحية دوراً بارزاً في في حضارة العرب والمسلمين بعد اعتماد المجتمعات المسيحية الناطقة باللغة اليونانية والأرامية اللغة العربية في إنتاجها الثقافي والفكري منذ القرن الثامن الميلادي.

تعتبر دراسة العرب المسيحيين ضرورية في العصر الراهن لتبديد المفاهيم الخاطئة والتي ترسخت عند البعض بسبب عدم فهم دورهم التاريخي والحضاري وبسبب الإعلام المضلل الذي يطالب بحمايتهم كأقلية تتعرض للظلم، إن تسليط الضوء عليهم ودراستهم ينبع من كونهم جزءًا أصيلًا من النسيج الاجتماعي. ، وهذا الدور ليس طارئاً أو مؤقتاً بل هو دور تكاملي ومحوري في بناء الوطن وأي ضرر يلحق بهم يؤدي إلى دمار المنطقة حيث أن التاريخ شاهد على أن ازدهار هذه المنطقة كان في فترات التلاحم والتعاضد الإسلامي المسيحي.

في المصطلحات

أُطلق على المسيحيين الذين يعيشون في المنطقة العربية اسماء مختلفة تبعاً للبيئة الثقافية والوسط الجغرافي. فهم تارة العرب المسيحيون أو المسيحيون العرب أو النصارى، أو اتباع المسيح أو المسيحيون في العالم العربي [1،2،3،4،5،6]. ونفترض أن استخدام التعابير والمصطلحات السابقة في الدراسات والأبحاث كان يتم بحسن نية لتدل على نفس المعنى وتُشير إلى جزء من سكان المنطقة العربية الذين يدينون بالدين المسيحي ويتكلمون اللغة العربية ويستخدمونها في طقوسهم وصلواتهم.

وفي السنوات الأخيرة ظهر مصطلح "ملح الأرض" كصفة للمسيحيين للدفاع عنهم في وجه حملات التكفير والقتل والتهجير التي تعرضوا لها في بعض البلدان من قبل جماعات لها أجندة خارجية تهدف إلى تفتيت الأمة وتقسيم البلاد.

وتاريخياً، نُشير إلى استخدام مصطلح "أهل الأرض" في العهد الإسلامي المبكر في الإشارة إلى المسيحيين، وقد ظهر هذا المصطلح منذ خلافة الراشد عمر بن الخطاب، ففي الرسالة المتبادلة بينه وبين الوالي عمر بن العاص أجاب هذا الأخير بكل اعتداد بالرأي "ولكن أهل الأرض –وكان يقصد الأقباط في مصر– استنظرو إلى أن تدرك علتهم، فكان الرفق بهم خيراً من أن يخرق بهم فيصيروا إلى بيع ما غنى بهم عنه" [7].

إن كينونة المسيحيين موجودة في الطيف العربي منذ ما قبل الإسلام ومن هذا الواقع الوجودي انبثق منه مصطلح "أهل الأرض"، وبالتالي فقد أصبح مدعاة لنا لأن نتسائل أي المصطلحين أحق بالرعاية والاستعمال، مصطلح المسيحيين العرب أم العرب المسيحيون؟

ويجيب د. برهان زريق على هذا السؤال بالقول: الجواب المنطقي المستمد من الحقيقة التاريخية والأولى بالأخذ والاستعمال هو "العرب المسيحيون" [7]. ونفس هذا الرأي يؤيده منير درويش، إذ يقول: "وبخصوص التسمية فإننا نفضل التسمية –العرب المسيحيين، لأنها

تفصح عن عراقتها وطبيعتها وامتداد اصولها إلى ما قبل الإسلام، هذا فضلاً عن حق كل كائن أن يطلق على نفسه التسمية التي يريدها.

أما الباحث التونسي خالد الحموني [8] فيقول:"أن استعمالنا لعبارة "مسيحيين عربٍ" لا يتعارض مع استعمال عبارة "عربٍ مسيحيين"، فالعبارتان استعملتا وإن غلَّبت الأولى الانتماءء الديني فذاع صيتها، فقد غلّبت الثانية الانتماء العرقي خاصة وأن العروبة كانت تمثل بالنسبة إلى هؤلاء انتماءً حضارياً لا يجوز التخلي عنه".

العربية المسيحية قبل الإسلام

توزعت على جغراقية هذه المنطقة دول عديدة كانت عربية الأصول رغم اختلاف ثقافاتها واللغة التي تستعملها. فكان هناك الأنباط ومملكة تدمر والغساسنة وعاصمتهم بُصرى واللخميون في الحيرة والأباجرة في بلاد الرافدين، وكانت هذه الممالك العربية تقع ضمن النفوذ الرومي والفارسي وفي بعض الأحيان كانت تمتلك صلاحيات كبيرة.

رغم أن الدين المسيحي نشأ في بيئة يهودية ثقافتها هيلينستية ولغتها آرامية (كانت العبرية لغة الصلوات اليهودية)، إلا أنها انتشرت في الجغرافية العربية. فالعروبة قبل المسيحية في التاريخ، وأن العروبة هي التي استضافت المسيحية الفتية ورعتها وحمتها من رومة وبطشها الغاشم [9]. ويعتبر كثير من الباحثين أن المسيحية الناشئة هي يهودية بالولادة ويونانية رومانية بالتبني، ويعتبر الكثيرون أن حُكم اليهودية كان حُكماً عربياً حيث أن هيرودس الملك كان ادومياً عربياً اعتنقت قبيلته اليهودية [10]، فهو ابن أب ادومي وأم عربية [11]. كما أن المؤرخ الأغريقي سترابو لم يكن ينظر إلى فلسطين كبلاد يهودية رغم وجود جالية يهودية فيها

ففي زمن السيد المسيح كانت جميع الدول المعروفة في بلاد الشام دولاً عربية واقعة تحت السيطرة الرومانية.

انتشرت المسيحية من أورشليم نحو الشرق أي في اتجاه البلدان السامية نحو سورية والعراق واتخذت المسيحية الناطقة باللغة السريانية من الرخا مركزاً فكرياً لها ومن طيسفون Clesiphon بين بابل القديمة وبغداد اليوم عاصمة لها. فإلى جانب المسيحيين ذوي الذهنية الهيلينستية كان هناك مسيحيون ذوي ذهنية سامية. الكنيسة اليونانية في الغرب حافظت على الأناجيل الأربعة، أما المسيحيون الساميون فلم يستطيعوا أن يقبلوا هذا التعقيد فقام ططياس وهو أحد أولئك المسيحيين بتركيب الأناجيل الأربعة تركيباً بارعاً واسماه الدياطسرون وتفسيره إنجيل وضع انطلاقاً من أربعة (الرباعي) وتفسيره أيصاً "تآلف الأربعة" [الأناجيل]. وتعني كلمة الدياطسرون الفاصل الموسيقي بين نغمتين ونصف النغمة وهو تناغم كامل.

وننوه هنا أن في الشرق السوري ما بين النهرين ظهر نموذج من المسيحية يُعرف أحياناً بأنه مسيح من أصل يهودي، وكان هذا النموذج يرفض الممارسات اليهودية، بلا شك، ويبتعد عن المجمع، إلا أنه بقي متعلقاً ببعض المقاييس التأديبية أو الطقسية والمقتبسة من

اليهودية، وبأطر فكرية خاصة بالساميين. وكان هذا النموذج حاضراً في قلب الكنيسة الكبرى، فاستخدم التعابير الأرامية أو السريانية .[9]

كانت بلاد الشام والعراق منطقة مسيحية بالكامل قبل الفتح الإسلامي لهذه المناطق. كان عدد السكان عند الفتح الإسلامي 4 مليون نسمة في سوريا و 9.1 مليون نسمة في العراق. ففي لحظة الوحي الإسلامي كانت الأرض التي تُشكل اليوم المشرق العربي تضم بموجب التقديرات ما يزيد قليلاً على 15 مليوناً من المسيحيين وأقل من 20 ألف من اليهود. ويعتقد بعض الباحثين أن سكان الأمبراطورية الإسلامية قد ظلوا في غالبيتهم غير مسلمين حتى الحروب الصليبية [12].

وفي الأزمنة الأولى للخلافة الإسلامية فإن العدد الكلي للسكان في سورية والعراق وشبه الجزيرة العربية بلغ حوالي 17 مليوناً، والجدول التالي يوضح ذلك [12].

الطوائف في الأزمنة الأولى للخلافة الإسلامية (بالالآف)

الأقليم	إجمالي السكان	المسيحيون	اليهود
شبه الجزيرة العربية	1000	100	10
سوريا	4000	3960	40
بلادالرافدين	2700	2673	27
الإجمالي	16800	15742	168

فالمسيحية لم تكن غريبة عن العرب، فلم يكونوا يعرفونها عن طريق الشام والملكانيين والسريان فيها فقط، بل كانت هناك مسيحية مونوفيزية في اليمن ومسيحية في قبائل عربية بدوية بالبحرين واليمامة ومسيحية مدينية ومهنية في مكة والطائف وحجر [7].

كانت بلاد الشام والعراق مناطق مسيحية حيث كانت لها مساهمات كبيرة في المجامع المسكونية، فمثلاً، اشترك في مجمع نيقية الذي عُقِد في عام 325م، 19 أسقفاً من فلسطين و22 أسقفاً من سورية و6 أساقفة من بلاد العرب و8 أساقفة من بلاد ما بين النهرين .[12]

كانت القبائل العربية عند ظهور المسيحية تُقيم منذ وقت طويل في منطقتي حوران وشرق الأردن، ومنذ القرن الثالث الميلادي انتقلت المسيحية إلى قبائل البادية في سوريا، وهذه القبائل هاجرت من الجزيرة العربية وأقامت في بادية الشام واشهرها غسان في الجنوب وتنوخ في الشمال وتغلب في الغرب، وقد اعتنقت هذه القبائل المسيحة وأقيم عليها أساقفة شاركوا في مجمع خلقيدونية باسم أساقفة العرب.

وتخبرنا التقاليد أن "الصبيبة" وهو شيخ إحدى القبائل العربية، كان له ابن مصاب بالشلل، فتشفع له القديس أفتيموس الناسك فشفي بمعجزة، فتعمد هو وعشيرته، ورسمه بطريرك القدس أسقفاً، ووقع محاضر مجمع خلقيدونية باسم "بطرس أسقف المضارب" [13]. وفي المجمع نفسه توقيعان آخران: الأول لأسقف عرب بادية الشام، والآخر لأسقف عرب بادية الفرات. كما شارك في أعمال هذا المجمع 17 أسقفاً من مقاطعة بصرى و10 أساقفة من مقاطعة البتراء.

فمملكة الأنباط كانت مملكة عربية يمتد حكمها من الفرات مروراً ببلاد الشام وحتى البحر الأحمر حيث يؤكد المؤرخ اليهودي يوسيفيوس فلافيوس أن العرب الأنباط كانوا حكامها في القرن الأول الميلادي. كانت مملكة الأنباط تحتوي على المسلك (طريق تجارية) الثالث الذي يبدأ من أيلة ماراً بالصحراء إلى قصبة الأدوميين القديمة التي صارت بعد هذا قصبة النبطيين ومن هناك يتمكن السائح بجمل وما يكفيه من الماء أن يعبر العربة (المقصود وادي عربة) وقلب البلاد الجنوبية متجهاً إلى الشمال إلى بئر السبع [11].

انتهت مملكة الأنباط باحتلال الرومان لها عام 106م وتأسيس ولاية العربية البترائية. وفي القرنين الثالث والرابع الميلاديين انتشرت المسيحية بين السكان الأنباط، وتُشير بعض الابحاث إلى أن أفراداً من النخبة النبطية أو ربما أحفادهم أصبحوا مسيحيين في وقت لاحق، خاصة بعد أن أصبحت المسيحية الدين الرسمي للأمبراطورية الرومانية. ومما يدل على انتشار المسيحية في منطقة الأنباط وجود كنيسة ريدج في منطقة البتراء والتي يعود تاريخها إلى أواخر القرن الخامس الميلادي.

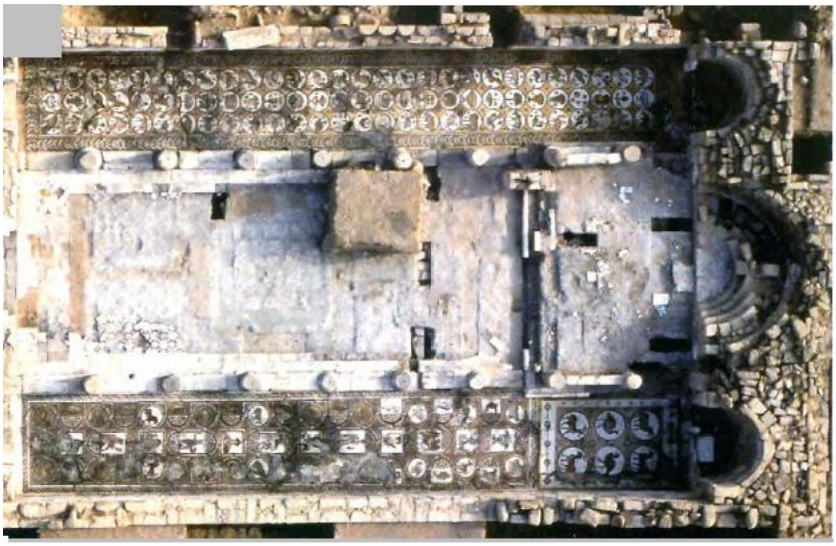

كنيسة ريدج ، البتراء، يُزعم أنها تعود إلى اواخر القرن الخامس الميلادي.
Source: Jane Taylor. Petra and the last kingdom of Nabateans

أما مملكة تدمر فقد كانت عبارة عن مركز تجاري كبير وتقع على طريق التجارة بين روما وبلاد فارس والهند، كانت تتبع للأمبراطورية الرومانية منذ القرن الأول الميلادي ولكنها تتمتع باستقلال كبير. ازدهرت كمملكة عربية في عهد الملك أذينة Odaenathus والذي هزم الفرس ولقّب نفسم بملك الملوك وبعد اغتياله عام 267م استلمت الحكم زوجته زنوبيا Zenobia حيث وسّعت مملكة تدمر لتشمل سوريا ومصر وأجزاء من آسيا الصغرى، وتحدت روما باعلانها نفسها أمبراطورة. قام الرومان في زمن الأمبراطور أورليان بحصار تدمر وأسر زنوبيا، وسقطت مملكة تدمر عام 350م. كانت مملكة تدمر نموذجاً لمملكة عربية حيث امتزجت فيها الثقافات العربية والرومانية واليونانية والشرقية.

بدأت المسيحية تنتشر في مملكة تدمر ابتداءً من االقرن الثالث الميلادي بسبب النشاط التبشيري القادم من أنطاكية وأديسا (الرها). وتفيد المصادر التاريخية باشتراك أساقفة عرب تدمريين في مجمع نيقية عام 325م وكذلك في مجمع خلقدونية عام 451م.

وهناك شواهد تاريخية تدل على مسيحية تدمر منها:

1. كنيسة تدمر الكبرى (الكنيسة البازيليكية) Basilica Church

تقع هذه الكنيسة جنوب غربي معبد شمين ويعود بناؤها إلى القرن الخامس الميلادي وتعتبر من أقدم الكنائس الموجودة في بادية الشام.

2. دار الأسقف أو الأسقفية Episcopium Church

تقع بالقرب من الكنيسة البازلكية ويعود بناؤها إلى القرن الخامس أو السادس الميلادي، وكانت مقراً للأسقف المحلي.

كذلك بيّنت الحفريات وجود نقوش يونانية وسريانية ذات طابع مسيحي في تدمر، حيث ورد اسم المسيح والشهيد فيها، ويعود أقدم هذه النقوش إلى عام 367م وتؤرخ لتكريس كنيسة على اسم أحد الشهداء.

وقد نشرت صحيفة الأخبار بتاريخ 15 تشرين ثاني 2008م عن اكتشاف البعثة الأثرية السورية البولونية المشتركة لكنيسة ضخمة في مدينة تدمر، وهذه هي المرة الأولى «تُكتشف كنيسة بهذا الحجم والضخامة، حيث تبلغ أبعادها 47 ـ 27 متراً، وارتفاع أعمدتها نحو ستة أمتار، ما يدل على أن ارتفاع القوس فوق الأعمدة يبلغ ستة أمتار أيضاً، وهذا يعني أن ارتفاع سقف الكنيسة الخشبي قد يتجاوز 15 متراً ما يدل على أهميته. كما وجِد مدرج صغير في ساحة هذه الكنيسة، وهو مكان مخصص لأداء بعض شعائر الكهنة والطقوس المسيحية، وقد تم العثور على ثلاث كنائس سابقاً في هذا الحي، كما أنه لأول مرة يظهر هذا الشكل في الكنائس الواقعة وسط سوريا وجنوبها، لكون هذا العنصر المعماري قد شاع فقط في كنائس شمال سوريا. الصور التالية من تصوير عضو البعثة البولوني [14].

منظر عام للبازيليكا الرابعة من الجنوب الشرقي

البازيليكا الرابعة. قبل التنقيب من الشمال الشرقي

أما في بصرى الشام في سوريا فقد وجِدت كنيسة تعتبر من أقدم الكنائس المسيحية المسقفوفة في العالم وتعرف باسم كنيسة القديسين سيرجيوس وباخوس وتتميز بتصميمها المركزي المربع والذي يحيط بدائرة مطوقة بمثمن. بُنيت في عام 512م.

كاتدرائية القديسين سرجيوس وباخوس في بصرى الشام، 512م

كاتدرائية بصرى الأثرية هي كنيسة بيزنطية أثرية تقع في مدينة بصرى الشام في سوريا، وهي من أقدم الكنائس المسيحية المسقوفة في العالم. تُعرف الكنيسة باسم "كنيسة القديسين سيرجيوس وباخوس" وهي نموذج معماري فريد، إذ تتميز بتصميمها المركزي المربع الذي يحيط بدائرة مطوقة بمثمن.

أما دير القديس سمعان فيقع في منطقة جبل سمعان شمالي مدينة حلب وفيه العامود الذي كان يجلس عليه القديس سمعان وطوله 15 متراً. وصفه تيودوريطس أسقف قورش في كتاب ينحدث فيه عن نُساك سوريا.

المعمودية في قلعة سمعان (476-490)م ومجمع كنيسة مار سمعان (حوالي 500م)

بنى الأمبراطور الروماني في نفس المكان كنيسة فخمة ولا زالت أثارها ضمن آثار الدير الكبير.

وفي منطقة غور الأردن تواجدت فرقة الناصريين Nazarenes وهي من أوائل الفرق المسيحية الذين استمروا في التمسك بالشريعة اليهودية، وقد تواجدوا في القرنين الأول والثاني الميلادي وتم ذكرهم في مؤلفات آباء الكنيسة مثل القديس إيريناوس وإبيفانيوس. ويذكر المطران جورج خضر **[15]** أن هؤلاء النصارى إنما هم فرقة مسيحية تهودت، ولعل ما يرجح هذه النظرية أن دعاة الأيبونيين (الفقراء) المتهودين معروفة في التاريخ الكنسي، وفي الأدبيات المتصلة بها والتي كانت متفشية في شرق الأردن في القن الرابع الميلادي تقول بانتظار نبي جديد.

أما منطقة شرق الأردن فقد دخلتها المسيحية مبكراً وذلك في القرن الأول الميلادي وكان هذا نتيجة لنشاط تلاميذ المسيح حيث تعتبر هذه المنطقة جزءاً من الأراضي المقدسة، ففيها تعمد المسيح في نهر الأردن على يدي يوحنا المعمدان.

خلال حرب اليهود ضد الرومان في السامرة عام 66م وقف المسيحيون على الحياد ومنذ بدايتها ترك هؤلاء أورشليم ولجأوا إلى أبيلا في تجمع المدن العشر في شرق الأردن (ديكابوليس)، ومن المرجح أن آخرين قد تفرقوا في أنحاء المقاطعة [16].

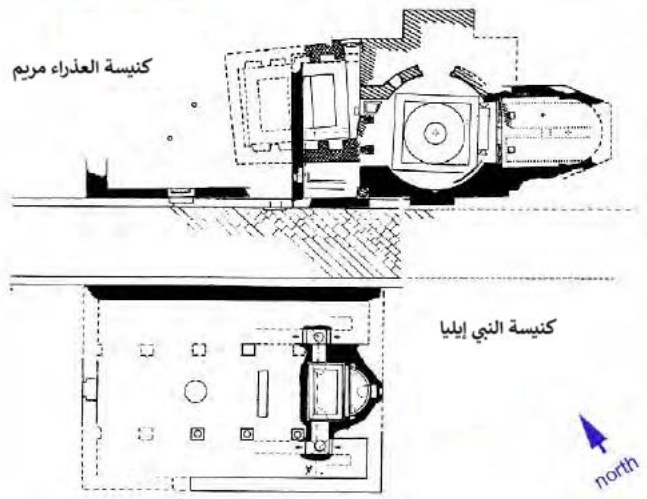

كنيسة العذراء مريم (القرن السادس) وكنيسة النبي إيليا (607)م مادبا-الأردن

Michele Piccirillo et al, *Byzantinische Mosaiken aus Jordanien* (Vienna 1986), p 63

كانت منطقة شرق الأردن بلداً مسيحياً منذ بداية القرن الرابع وحتى منتصف القرن السابع الميلادي، وقبل أن تنتشر فيها الديانة المسيحية كانت مسرحاً لاحداث مذكورة في الإنجيل، فيوحنا المعمدان عاش على نهر الأردن، وشفى المسيح الأصم الأخرس في منطقة المدن العشر. إن كثرة الكنائس والأديرة والأماكن المسيحية في الأردن تدل على مدى انتشار وقوة اليانة المسيحية في هذه الأراضي. فمثلاًن مدينة مادبا تحتوي على أقدم خارطة فسيفسائية في العالم [17].

الجزء الثاني من خارطة مادبا وتظهر فيها القدس بأبوابها وكنائسها ومنها كنيسة القيامة

جزء من خارطة مادبا ويظهر فيها البحر الميت ونهر الأردن ومدينة أريحا

وكجزء لا يتجزأ من عملية الاندماج الاجتماعي، بدأ المسيحيون أيضًا في كتابة نصوص لاهوتية ودفاعية أصلية باللغة العربية المستخدمة في الخطاب الديني الإسلامي المعاصر. [1].

ظلت بلاد الشام والعراق منطقة مسيحية حتى بعد الفتوحات الإسلامية ولكن بدأت التركيبة السكانية بالتغيير بسبب هجرة العرب من الجزيرة مع الفتوحات واستقرارهم في هذه المناطق. وفي مرحلة لاحقة، ومع الرسوخ السياسي واللاهوتي للدين الإسلامي، وتنامي النزعات والاتجاهات الانتقادية للمسيحية، تحولت الكتلة الأساسية لمسيحي الشرق الأدنى إلى الإسلام، أما الذين بقوا أوفياء لدينهم فقد استعربوا،

عدا الأرمن، الذين لم يخضعوا للاستعراب، وحافظوا على سماتهم الأثنية الخاصة إلى حد كبير أو صغير كل من الأشوريين والأقباط والموارنة ولكنهم تكيفوا (مع الواقع العربي الإسلامي) في الميدان اللغوي محتفظين بلغاتهم الأصلية القديمة في إطار الليتورجيات الكنسية فقط **[18]**.

مساهمة العرب المسيحيين في الحضارة العربية الإسلامية

كانت مناطق بلاد الشام والعراق تزخر بالمراكز العلمية والفكرية قبل الفتح الإسلامي. فقد تركز النشاط العلمي والفكري قبل الإسلام في مدارس أنطاكية والرها ونصيبين. فإذا كانت مدارس أنطاكية قد اشتهرت بالليتورجيا والمواعظ والتفسير واللاهوت، فإن مدارس الرها ونصيبين أشتهرت إضافة إلى تلك الفروع بالطب والفلسفة حيث كانت هذه المواضيع تُدرس بالسريانية في أوائل القرن السادس. أما الدليل على ذلك فيكمن في ترجمات أعمال أرسطو وجالينوس. فأعمال أرسطو في المنطق المعروفة باسم ألورغانون أو "الأداة" مع مقدمة بورفوريوس لها المعروفة بايساغوجي كانت جزءاً اساسياً من التعليم العالي في كل مكان في عهد الأمبراطورية الرومانية وأوائل الأمبراطورية البيزنطية. وبفضل هذاالمنهاج المشترك غرف الغرب اللاتيني الوسيط والشرق اليوناني والمشرق السرياني والعربي جميعاً من التراث الفلسفي نفسه. وهذا يعني مثلاً أن بيدي (735م) في انكلترا الشمالية يقرأ باللاتينية الكثير من النصوص اليونانية الأصل التي كان يقرأها في بلاد النهرين بالسريانية معاصره جرجس (724)م أسقف القبائل العربية وتلميذ يعقوب الرهاوي **[19]**.

من هنا نستنتج أهمية هذه المدارس في تكوين التراث العربي – الإسلامي، فقد اقترنت المسيحية المبكرة بالثقافة اليونانية الكلاسيكية، وانتقل هذه التراث إلى مدارس الرها ونصيبين بحيث امتزج في هذه المدارس التراث المسيحي اليوناني بالتراث المسيحي السرياني. لقد شكل هذا التزاوج العناصر الأساسية المكونة للتراث المسيحي كما تطور في عهد الفتوحات العربية، ولاحقاً، ظهر تراث عربي عبارة عن تلاقح التراث اليوناني والسرياني بالتراث العربي المبكر.

لقد صنّف الأب كميل حشيمة في مؤلفه القيّم "علماء مسيحيون في ديار الإسلام 622–1300م" العلماء المسيحيين الذين برزوا في تلك الفترة حسب اختصاصهم ووجد أن عددهم بلغ 97 عالماً في كافة فروع العلم ، منهم 60 كانوا أطباء – من بينهم خمسة نقلوا كتباً طبية من اليونانية إلى العربية، وواحد كان أيضاً فيلسوفاً و9 كانوا كيميائيين، و9 تقلة و6 فلاسغة أو منطقيين و5 فلكيين أو منجمين و 3 مهندسين و2 جغرافيين وواحد صيدلاني وواحد مؤرخ وواحد في موضع السحر **[20]**.

أما في العصر الحديث، فقد قام الباحث خالد الحمروني بدراسة العلماء العرب المسيحيين ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية ووجد أن عددهم يبلغ 228 علماً من أعلام المسيحيين العرب وقد توزعوا جغرافياً حسب البلدان كما في الجدول التالي [8]:

التوزيع الجغرافي لأعلام المسيحيين العرب في فترة ما بين الحربين

البلد	لبنان	سوريا	مصر	العراق	فلسطين	الأردن
عدد الأعلام	160	34	17	10	5	2

وقد قام الباحث بعمل جدوال لهؤلاء الأعلام بين فيه الاسم وحياته ومؤلفاته والملاحظات والمراجع. وقد قسم هذه الجدوال حسب الفروع التي عمل فيها هؤلاء. ويتبين من الجداول أن 62 علماً منهم عملوا في المشاغل الأدبية وبينهم 10 أدبيات مسيحيات وهناك 14 أديباً في المهجر و10 أعضاء في الرابطة القلمية و7 في العصبة الأندلسية. أما في المجالات العلمية فكان هناك 11 طبيباً و4 في علوم الرياضيات والفيزياء والفلك و11 في الحقوق و29 في التاريخ و7 في الببليوغرافيا و6 في الفنون و6 في علوم مختلفة. أما في الحقل اللغوي، فقد عمل في الترجمة والتعريب 7 و11 في اللغات و7 في المجال السياسي و11 صحفياً و9 في العلوم الدينية و5 في العلوم التربوية. رغم الجهد المبذول في هذه العمل الا أننا نعتبره ناقصاً ولا يفي العرب المسيحيين حقهم، فأعدادهم أكبر بكثير مما ذُكر.

ساهم المسيحيون العرب في النهضة العربية الحديثة، فكانوا رواداً في دراسة اللغة العربية ووضع المعاجم لها وترافق ذلك مع قيامهم بجهد كبير في مجال الترجمة بسبب امتلاكهم معرفة اللغات الأجنبية وكل هذه النشاطات دفعتهم إلى إدخال الطباعة والآتها الحديثة إلى المنطقة. كان لهم فضل كبير في تطوير الصحافة في مصر وسوريا وبلاد الشام وفق المعايير المعاصرة.

لقد كان لاهتمام العرب المسيحيين باللغات الأجنبية مدخلاً لهم للاطلاع على ثقافة وعلوم الغرب وبالتالي نقلها وترجمتها إلى اللغة العربية مما ساهم في نقل العلوم الحديثة وتطوير مناهج التعليم بحيث كانوا جسراً معرفياً وعلمياً في البلاد العربية.

أما في العمل الوطني فقد كانوا رواداً في العمل القومي العربي ضد الوجود العثماني في البلاد العربية ودفع قسم منهم حياته مع اخوانهم المسلمين على أعواد مشانق العثمانيين (ابراهيم اليازجي ورفيق رزق سلوم)، واستمروا في هذا النهج القومي ضد الاستعمار الذي حل محل الدولة العثمانية وكانوا الطليعة التي شكلت الأحزاب القومية والوطنية في بلاد الشام والعراق.

رغم ما عاناه العرب المسيحيين من ظلم واضطهاد في فترات ضعف الدولة الإسلامية وسيطرة عناصر غير عربية على مقاليد الحكم إلاّ أنهم لم يفقدوا بوصلة انتمائهم العربي وواصلوا نشاطهم حتى تعود للدولة قوتها ومنعتها لأن في ذلك حماية لكل مكونات الدولة من مسيحيين ومسلمين.

المراجع:

1. فدوى أحمد عبيدات.

المسيحيون العرب وفكرة القومية العربية في بلاد الشام ومصر 1840–1918. الطبعة الأولى. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت–لبنان. 2009.

2. تيريزيا هاينتالر.

المسيحيون العرب قبل الإسلام. ترجمة: لميس فايد. الطبعة الأولى. دار النشر الأسقفية. القاهرة. 2017.

3. حسين العودات.

العرب النصارى. عرض تاريخي.

4. أبو محمد عاصم المقدسي.

التحفة المقدسية في مختصر تاريخ النصرانية وبدايتها ومنتهاها.

5. الأمير الحسن بن طلال.

المسيحية في العالم العربي. الطبعة الأولى. مكتبة عمان. 1995.

المسيحية في العالم العربي.

6. نقولا زيادة.

المسيحية والعرب. الطبعة الثانية، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق. 2000م.

7. د. برهان زريق.

العرب المسيحيون. الطبعة الأولى. دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع. دمشق–سوريا. 2012.

8. خالد الحمروني.

مشاغل المسيحيين العرب في فترة ما بين الحربين. مركز التراث العربي المسيحي للبحث والتوثيق والنشر. بيروت–لبنان. 2010.

9. ترجمة: الأب أنطون الغزال والأب صبحي حموي اليسوعي.

تاريخ الكنيسة المفصل. المجلد الأول. طبعة أولى. دار المشرق. بيروت–لبنان. 2002.

10. فيكتور سحاب.

العرب وتاريخ المسألة المسيحية. دار الوحدة للطباعةوالنشر. بيروت–لبنان. 1986.

11. تشارلس فوستر كنت.

جغرافية الكتاب وتاريخه. ترجمة: نقولا يعقوب غبريل. المطبعة الأمريكية، بيروت، 1923م.

12. د. جيروم شاهين.

المسيحيون العرب بين ألفيتين. الطبعة الأولى. توزيع آفاق. بيروت–لبنان. 2001.

13. ترجمة: الأب يعقوب شحاته الفرنسيسكاني.

تاريخ المسيحية والكنيسة من أقصى العالم إلى أقصاه. الجزء الأول. منشورات الرهبان الفرنسيسكان. القاهرة. 2017.

14. Grzegorz Majcherck.

Excavating the basilica. Dtudia, Palmyrenskie 12, 2013.

15. المطران جورج خضر.

في العلاقات الإسلامية المسيحية.

16. بيا كانيفيه.

المسيحية في القرن الأول للميلاد. 1. الخلفية الحضارية في إطار حضارات المتوسط. كتاي المسيحية عبر تاريخها في المشرق.

مجلس كنائس الشرق الأوسط. الطبعة الثانية. بيروت–لبنان. 2002م.

17. المهندس أديب غانم.

خارطة مادبا الفسيفيسائية. الطبعة الأولى. عمان. 2025

18. اليسكي جورافسكي.

الإسلام والمسيحية. عالم المعرفة. العدد 215. نوفمبر 1996. الكويت.

19. تحرير: حبيب بدر وآخرونز

المسيحية عبر تاريخها في المشرق. مجلس كمائس الشرق الأوسط. الطبعة الثانية. بيروت–لبنان.

20. الأب كميل جشيمه اليسوعي.

المؤلفون العرب المسيحيون من قبل الإسلام إلى آخر القن العشرين. الجزء 6. الطبعة الأولى. دار المشرق. بيروت–لبنان. 2013.